دم في «عيون قارة»(١)

كان نومه في تلك الليلة.. غراراً.. (ياربّ، ماذا نفعل؟ ننهض مبكرين، ونمضي إلى موقف العمّال، ننتظر أحداً من اليهود الملاعين، يدعونا للعمل في مزرعته أو لحمل الاسمنت في بنايته التي يقيمها... ولكن لم يدعونا أحد.. أسبوع مضى دون عمل، ودون أن نكسب قرشاً واحداً... كيف نعيش دون أن نكسب نقوداً؟ من أين لنا ثمن الخبز والبندورة؟ وسعاد.. الصغيرة، ذات الثلاثة أعوام، كسرت قلبي أمس وهي تبكي.. تريد عروساً كعروس ابنة الجيران، ولكن من أين نأتي بالنقود التي نشتري بها... لعبة!؟ اذا اشتغلت غداً فإنني سأشتري لعبة لها قبل أن اشتري لنا خبزاً وبندورة يا ربّ! ألا يكفي أننا في سجن كبير. الذي يعيش في جحيم الاحتلال يعيش في سجن كبير، فأينما توجّه يرقبه اليهود، وأينما انتقل يطلبون منه إبراز الهوية، أبناء الوطن أصبحوا غرباء، والغرباء هم أبناء الوطن! أنعاني السجن في معيشتنا الخاصّة، نسجن بالحاجة وضيق ذات اليد،

---

(١) قرية فلسطينية هاجم اليهود فيها العمال الفلسطينيين وقتلوا منهم عدداً كبيراً.

كما نعاني السجن في حياتنا العامّة.. أسأل اللّه أن ييّسر لي عملاً... غداً).

وأرق زوجته بكاء صغيرتها – سعاد – في اليوم الماضي.. (نتحمل الجوع، ولكن كيف نتحمل – يا ربّ – بكاء أطفالنا!! يطلبون مالا نستطيع أن نقدّمه إليهم.. أُرْهِقَ قلب – سعاد – وهي تبكي، تريد عروساً كعروس ابنة الجيران ولكن يا صغيرتي يا حبيبة قلبي، يا نور عيني، يا دموعي المسفوحة من أين نأتي بالنقود لنشتري لك لعبة؟ أبوك المسكين – لم يجد عملاً منذ أسبوع! يقضي نصف يومه في الشمس ينتظر أحداً من اليهود المجرمين يدعوهم للعمل، أيّ عمل، مهما كان شاقاً، وبأية أجرة مهما كانت قليلة.. ولكن يعود مكسور الخاطر حزيناً.. اللّه اللّه – يا – رشيد – إنك تعاني أكثر مما نعاني.. تحمل همك، وقبل همك تحمل همّ زوجتك وابنتك سعاد! تحاول أن تظهر بمظهر القوة والتجلد.. ولكني أفاجئك في لحظات وأنت تبكي.. تسرع تكفكف دموعك، لكيلا تبدو ضعيفاً، بل لكيلا تكسر قلبي فأنت تريد أن تحتفظ بهمومك لنفسك، لا تريد أن تحمّل أنثى شيئاً من همومك، ولا تريد أن يبدو ذلك لطفلتك الصغيرة.. لك اللّه يا رشيد!!)

(ألا يكفيك ما أنت فيه من هم داخلي! قتل الصهاينة المجرمون ابن أخيك الصغير قبل اسبوع، لا يزيد عمره عن عشر سنوات، كان

يجمع الحجارة للفتيان، لا حظوا سرعته ونشاطه.. صوّب أحدهم بندقيته نحوه.. فأرداه – على الفور – قتيلاً... أصابك ذلك بجرح نازف، وألم غير مفارق.. بكيت عندما عدت من يوم خائب ووجدته قد أدرج في أكفانه كأنه طير من طيور الجنّة، لأن أخاك قد بلغ الستين، وليس له من الأطفال الذكور إلا – عليّ – هذا الطفل الذي قتله رصاص العدو والجريمة.. بكيت بكاءً مراً، وكان يسمع لك نشيج كأنه أنين، لأنك كنت تريد أن تحبس دمعك وتتجلد أمام الناس، ولكن عواطفك انفجرت رغماً عنك.. عندما رأيت أخاك الشيخ يبكي طفله الوحيد بدموع غزار..)

مع الفجر يوم الأحد ٢٠ / ٥ / ١٩٩٠ استيقظ الزوجان المهمومان... توضآ وصليا الفجر.. بعد ذلك.. رشيد انشغل بإصلاح نعليه، وزوجته فاطمة أخرجت (وابور الكاز) من تحت طاولة قديمة ووضعته فوقها ثم أشعلت ناره ووضعت عليه إبريق الشاي.. ثم مضت إلى جارتها – أم أحمد – وأخذت من عندها رغيفين من الخبز.. لم تطلب غير الخبز، ولكن – أم أحمد – تبرّعت من تلقاء نفسها بتزويدها بكوب من الزيت:

– خذي هذا الزيت – غموساً – لأبي سعاد.

– شكراً يا خالتي أم أحمد – يكفي الخبز.

– لا يا بنيّتي، خذيه، الحال واحدة.. وحقكم علينا، يجب أن نتقاسم السّراء والضّراء.. نحن أسرة واحدة، في هذا الوطن

المعذّب.. شكرتها فاطمة وعادت بالخبز والزيت...

أفطر رشيد.. مسح فمه بيده، تقدم نحو سعاد وهي نائمة، وطبع قبلة على جبهتها، ثم ودع زوجته ومضى إلى مكان تجمع العمال في (عيون قارة) ينتظر من اللّه الفرج... وقفت فاطمة على الباب تودعه وتدعو له بالتوفيق، ثم مسحت بأطراف أصابعها دمعتين سقطتا على وجنتيها، وهي تهم بالاستدارة نحو الداخل..

في مكان تجمع العمل التقى حوالي ثلاثين عاملاً، كل منهم ينتظر أن يدعوه أحد المجرمين الصهاينة للعمل عنده، وكانوا – بانتظار الفرج – يتبادلون الكلمات باقتضاب، قال رشيد:

– قبل ليلتين قال الشيخ محمود: «لو تحمّل العرب مسؤوليتهم... لما احتجتم إلى العمل عند الأعداء..».

نظر إليه عامل آخر وسأل:

– كيف؟

– قال الشيخ: «توظف الدول العربية الغنية رؤوس أموال في مشاريع في الضفة الغربية.. لا يراد منها الربح المالي..»

قال عامل آخر مستفسراً:

– إذن، ماذا يراد منها:

– قال رشيد: سألناه نحن الحاضرون، فقال: يراد منها تمكيننا من الصمود أولاً، ثم تحقيق هدفين آخرين بعد ذلك».

سأل عامل ثالث: ما هما؟

قال رشيد: قال الشيخ: «يستغني أبناؤنا عن العمل عند الصهاينة الأعداء.. وهذا تعزيز للكرامة الوطنية، لكرامة الإنسان الفلسطيني والعامل الفلسطيني.. ويسبب ذلك أزمة عند الإسرائيليين، لأنهم يعتمدون في الأعمال اليدوّية الأوليه على أبنائنا العمّال، وذلك يضعف من قدرة الاقتصاد الإسرائيلي.. وأضف: صحيح أن اسرائيل لا تعتمد في تمويل مشاريعها وفي الإنفاق العام على اقتصادها الداخلي، لأن أمريكا والدول الغربية مستعدة أن تعوضها عن أي خسارة ناجمة عن امتناع عمالنا عن العمل عندها، في المصانع والمزارع، وأعمال البناء.. ولكن اسرائيل تريد شيئاً آخر».

قال عامل رابع: ما هذا الشيء الآخر؟

قال رشيد: قال الشيخ محمود: «إنها تريد أن تظهر بأنها دولة متقدمة في المنطقة.. تنتج صناعات متفوقة، وثماراً محسنة تغزو بهما الأسواق الخارجية على اعتبار أن ذلك خير دليل مادي على تقدمها وحضارتها، فهي تنتج أنماطاً زراعية محسنة وأنواعاً من الصناعات متقدّمة..»

وفجأة.. طلع على هؤلاء العمال جندي صهيوني يحمل بندقية من نوع (م- ١٦).. وقف على بعد ستة أمتار من العمال، وألقى اليهم أمراً: ليبرز كل منكم هويته، اصطفوا صفَاً واحداً.. بسرعة.. وقفت الكلمات في حلوقهم..

أسرع كل يأخذ مكانه في الصف، أسقط نظره إلى جبيته.. ردّ يده اليها ليستخرج الهويّة.. لم يكن هدف الجندي الصهيوني «عومي بوبر» ما أمرهم به، وإنما هي حيلة مدبرة أراد أن يوجه بها اهتمامهم إلى غير هدفه الذي دبّره مع جماعته من الليل.. تقدّم خطوتين.. فوراً قدّم رجله اليسرى وثبتها في الأرض.. وضع عقب بندقيته في كتفه الأيمن. مصوباً فوّهتها نحو العمال... ضغط على الزّناد حرّكها، وعقبها راسٍ في كتفه، من اليمين إلى الشمال، انطلقت الرصاصات سريعة تترى.. خلال عشرين ثانية.. خرّ ثمانية عمال صرعى. كان أحدهم «رشيداً» وسقط عشرة عمال جرحى، كان أحدهم أخا فاطمة، وآخر هو «أحمد» ابن الجارة، أم أحمد. انفجر الدم الذكيّ، منسابا على وجه التراب الطهور، يروي ظمأه إلى الحياة التي لا يعيدها إليه شيء كدم الشهداء.